هيروشيما...في الذكرى الستين لتدميرها

هيروشيما

المدينة التي التهمها اعصار مائي، واحرقتها النيران، ودمرتها القنبلة الذرية

هيروشيما مدينة ساحلية متوسطة الحجم تمتد بين جبال خضر يصل ارتفاعها إلى ٩٠٠ متر وبين خليج ذي زرقة لازوردية ينفتح نحو الجنوب على جزر صخرية تكثر فيها الاشجار. وتقع المدينة ذاتها على دلتا نهر (اوتا) الذي يتشعب عند مصبه إلى ستة انهر. وترتبط اجزاء المدينة بعضها ببعض من خلال ستين جسراً، ويعيش فيها اليوم اكثر من مليون نسمة - كان تعدادهم سنة ١٩٤٥ قرابة (٤٠٠) الف نسمة، قتل منهم اكثر من مئتي الف عند سقوط القنبلة الذرية على المدينة.

ترجمة: قاسم مطر التميمي

هيروشيما معروفة بانتاجها للخضروات والرز الجيد والانتاج الصناعي - الحديد والفولاذ والسيارات والمكائن الزراعية وبناء السفن وكذلك الورق والانسجة.

وتقع هيروشيما بين خطي عرض (٣٤) و(٣٥) وهي تشبه بذلك الدار البيضاء وتونس والقدس، ومناخها حار ورطب حتى حلول وقت الاعاصير في بداية ايلول، عندئذ يحل فيها خريف طويل جاف وحار، يعقبه شتاء قصير وربيع تهب فيه الرياح بكثرة.

وعلى مقربة من هيروشيما ينتصب هيكل (شنتو) الذي بني في القرن التاسع الميلادي فوق جزيرة (ميابيما) وقد بني من خشب الارز ذي اللون الاحمر البرتقالي ويتكون من الف عمود يشبه السهم. وفي البحر على بعد ١٦٠ متراً من الشاطئ اقيم نصب خشبي يدعى (توري) يبلغ ارتفاعه ارتفاع عمارة ذات خمسة طوابق، تأسس تكريماً لآلهة البحر ولحماية جميع الذين يبحرون.

لقد شهدت هيروشيما خلال تاريخها سلسلة من الكوارث والنكبات، ففي منتصف القرن السابع عشر حدث اضطراب بحري كبير ارتفع فيه منسوب المياه على نحو غير مألوف حتى اغرق المدينة بكاملها.

وبعد خمسين سنة من ذلك هب على المدينة اعصار شديد لم يترك وراءه سوى الخرائب والانقاض. وبعد خمسين سنة اخرى اتت الحرائق على المدينة كلها وتعرضت إلى حمم بركانية مدمرة لم تترك من هيروشيما قائماً.

في ٦ آب ١٩٤٥ اسقط الاميركيون عليها قنبلة ذرية. كان ذلك في الساعة الثامنة والربع صباحاً؛ الشمس مشرقة ودرجة الحرارة ٢٧ مئوية. ودمرت القنبلة من المدينة خمسة كيلومترات مربعة حولتها إلى انقاض وابادت كل كائن حي فيها. وبقيت السنة النيران تأكل في منازلها حتى اتت على آخر منزل وخمدت في الساعة الثالثة بعد الظهر وتساقط المطر الاسود حتى الرابعة عصراً. وادرك الناس، ليس في هيروشيما وحدها وانما في جميع انحاء اليابان، بان حياتهم وممتلكاتهم يمكن ان تزول بين لحظة واخرى بفعل قوة جبارة يقف المرء حيالها عاجزاً عن ان يفعل شيئاً.

كل شخص في اليابان يعرف الشعور الذي يساوره كلما تتزلزل الارض: "لحسن الحظ" يقول ذلك عندما تكون الهزة خفيفة وسريعة؛ "ربما اصابت احداً ما في مكان آخر"

يشعر اليابانيون باكثر من خمسة آلاف هزة في السنة. فاذا ما وقف المرء عند الشاطئ واطل على البحر يشعر بسرور غامر لانعكاسات الالوان وتلاطم الامواج ولا يستبعد ايضاً عن ذهنه قدوم موجة ناتجة عن هزة بحرية، من الافق البعيد لترتطم بالشاطئ وتحدث امواجاً عاتية تغمر الشاطئ كله. لو اراد اليابانيون ان يتذكروا كل الكوارث التي حلت بهم من السماء والارض والبحر لما وجدوا وقتاً لغير الذكرى ولما تخلصوا من احزانهم.

ان الذين فقدوا في كارثة ما اقرباءهم وافراد عوائلهم يشيدون بصمت هيكلاً لموتاهم ويعيدون بناء منازلهم الخاصة من جديد. وآخرون يقولون لأنفسهم: "لحسن الحظ نجونا هذه المرة!".

هكذا قال ايضاً العديد من الناس الذين كانوا يقطنون اطراف المدينة عندما سقطت القنبلة على هيروشيما، او الذين رأوا الدخان عن بعد، يتصاعد إلى السماء؛ "هذا هو مخزن ذخيرة الحامية قد انفجر" قالوا ذلك مع النظر إلى السحب المتدفقة وكانوا مسرورين لانهم ليسوا على مقربة عندما حدث الانفجار. ولكن عندما شاع الخبر بعد ذلك بان الانفجار كان نتيجة قنبلة فريدة من نوعها تبيد المدينة كلها بضربة واحدة، ركض الكثيرون إلى المنطقة المحترقة بدافع الفضول او الخوف على اقربائهم او الحرص على تقديم المساعدة.

لذلك ايضاً فان عدد ضحايا القنبلة الذرية التي سقطت على هيروشيما ليس دقيقاً. فالذين لم يكونوا موجودين بعد الساعة الثامنة والربع صباحاً وقضوا يومهم خارجها فانهم قد عادوا اليها وتعرضوا إلى الاشعاع. والذين تعرضوا إلى المطر الاسود قلما حالفهم الحظ في النجاة. وكذلك ايضاً العسكريون والعلماء والاطباء الذين قدموا من طوكيو ومدن يابانية اخرى لمعاينة المنطقة المنكوبة والحصول على صورة كاملة عن مدى تأثيرات القنبلة اصبحوا مرضى ومات منهم كثيرون.

قدر عدد ضحايا القنبلة في هيروشيما بمئتي الف نسمة، من ضمنهم كاهنان المانيان وعشرون طياراً اميركياً اسيراً وخمسمائة صيني وثلاثون الف كوري يعملون بالسخرة وجرح عشرون الف كوري آخر.

لقد شاع في اليابان، بعد سقوط القنبلتين الذريتين على هيروشيما وناغازاكي، ان الذين بقوا على قيد الحياة لم يكونوا ضحايا قنبلة اعتيادية كما هو شأن الآلاف في طوكيو واوساكا او ناغويا.

واطلق عليهم اسم (هيباكوشا) - أي متضرري القنبلة.

ان العديد من الناس الذين بدا عليهم انهم اصحاء الذين رأوا وميض الانفجار من مسافة قريبة نوعاً ما او الذين دخلوا منطقة الحادث فيما بعد، اصيبوا فجأة بحمى شديدة وتساقطت شعور رؤوسهم وظهرت على بشرتهم بقع داكنة حمر واصيبوا برعاف شديد ومات اغلبهم بعد معاناة شديدة من آلام مبرحة.

غير ان الذين لم يموتوا ايضاً لحقهم النحس طول حياتهم؛ النساء اللواتي كن حوامل في شهر آب انجبن اطفالاً موتى او مشوهين او متخلفين عقلياً. اما الرجال فقد اصيبوا بالعقم.

تعني كلمة (هيباكوشا) عدم قدرة الشخص على ان يعود انساناً اعتيادياً. ان العديد من الذين اكتست وجوههم واجزاء اخرى من اجسامهم بآثار الحروق يتحاشون مواجهة الناس ونظرات الآخرين من الاصحاء وامثالهم والسير في طريقهم، وهناك آخرون من الهيباكوشا لم تظهر على اجسامهم آثار واضحة يخضعون هم ايضاً إلى حرمان غير معلن من حماية القانون.

ان من التقاليد اليابانية القديمة، التي ما زالت قائمة: الكشف عن خلفية المتقدمين للزواج، الشخصية منها والاسرية بادق تفاصيلها والتحري عن المركز الوظيفي والحالة العائلية. ولا يتم الزواج عادة اذا تبين ان العائلة تعاني من عيب وراثي او عاهة وراثية. اما من ينحدر من هيروشيما او ناغازاكي بعد عام ١٩٤٥ فيكون عادة موضع شبهة.

ان هناك ثلاثمائة وسبعين الف هيباكوشا مسجل يعيشون في اليابان اليوم، هم حصيلة هيروشيما وناغازاكي مجتمعتين.

لقد حددت دوائرة الدولة البيروقراطية منذ زمن طويل من هو الهيباكوشا ومن هو سواه، فاعتبرت كل من تعرض بشكل مباشر لاشعاع القنبلة الذرية - وان كان جنيناً في بطن امه - او انه دخل منطقة الاشعاع بعد وقت قصير من الانفجار، واحداً من الهيباكوشا.

ان اكثر من نصف الهيباكوشا، وخصوصاً اولئك الذين لم تظهر عليهم عاهات للعيان، قد تركوا هيروشيما وناغازاكي. وبذلوا جهداً سخياً كي يشقوا لهم طريقاً في الحياة بمدن اخرى. ويمتعضون كثيراً اذا ما اكتشف احد ما امرهم.

فهم لا يريدون ان يعلم احد من الوسط الذي يعيشون فيه انهم هيباكوشا. وخصوصاً اذا كان لديهم ابناء لم يتزوجوا بعد او كانوا مواظبين على الحياة الوظيفية.

بعض الهيباكوشا، ومنهم الكهول، تحدثوا دونما خوف او وجل. عددهم قليل ولم يبق احد من اقربائهم على قيد الحياة.وقد صوروا الفاجعة على النحو التالي: بدأت بومضة برق، سطعت فجأة حتى ظن الجميع ان امراً قد حدث على مقربة منهم. واعقب الوميض دوي ناتج عن موجات ضغط متلاحقة.

البرق والصاعقة كونتا وحدة اطفأت ضوء النهار واخرست العالم كله من خلال قوة الصوت الجبارة. وساد المنطقة سكون اصم وظلام دامس واصبح الناس كالسكارى يترنحون ويهربون من مكانهم في كل اتجاه. اما الذين عجزوا عن الهرب فقد حركوا ايديهم وارجلهم وحاولوا ان ينتصبوا في الاقل..

لم يبق شيء ممن اشرقت عليه شمس الصباح الدافئة قبل لحظات. كل شيء كان اسود، كان قد اختفى تحت غبار اسود، كان مدمراً. السنة اللهب التي بدأت تندلع، بدت هي الوحيدة التي تكتسب لوناً.

وخرجت من الغبار الاسود الذي يشبه الضباب كائنات سود من غير شعر ومن غير وجوه. كانوا يصرخون باصوات لم تعد اصواتاً بشرية. تنطلق تأوهاتهم وتوجعاتهم من كل مكان، من بين الانقاض ومن تحت الارض، كانت اصوات منهكة ضعيفة تطلب المساعدة.

الكائنات التي لا شعر لها ولا وجوه اخذت تترنح وتعدو في كل اتجاه. تحدق بعيون من غير اجفان، مشرعة اذرعها، تتدلى من اجسامها جذاذات من قماش ومن جلد. بقايا ملابسها كانت سود وجذاذات جلودها كانت سود واجسامها كانت سود. كان سواداً رمادياً مفزعاً مختلطاً بحمرة الدم. الدم مختلط بالرماد وبنداء المدفونين تحت الانقاض ومختلط بالتراب واللهب الذي ينبعث تدريجياً من كل الانقاض وبنداءات الاستغاثة التي تطلب الماء.

وعلى نحو ما تمكن الاحياء من الخروج من هذا الجحيم. ليست هناك نقطة معينة يتوجهون اليها. فالجبال الممتدة عند طرف المدينة لا يمكن رؤيتها. وتتكدس فوق الشوارع اكوام هائلة من الانقاض.

وسادت الحيرة والبلبلة كل شيء اياماً واسابيع بعد سقوط القنبلة الذرية. فالذين اعتقدوا مسرورين انهم من الناجين لانهم بقوا على قيد الحياة سرعان ما مرضوا وازدادت حالتهم سوءاً وما لبثوا حتى ماتوا، بعضهم اثر بعض.

الاطباء والعلماء والعسكريون الذين سارعوا لتقديم المساعدة للمدينة المنكوبة لقوا حتفهم ايضاً، بعد اسابيع قليلة.

وقال اليابانيون الذين سمعوا بالفاجعة: "أون - غا - تاي" أي: كان حظهم نحساً! هذه الجملة يرددها اليابانيون دائماً اذا ما اصيب البعض منهم بكارثة من السماء او من الارض او من البحر.

ولكن الكارثة التي حلت بهم هذه المرة اسقطتها طائرة اميركية يقودها همجي من رعاة البقر، لتبقى هيروشيما عاراً ابدياً في جبين الامبراطورية الاميركية.